بين يدي الكتاب

قد يكون أثقلُ ما يثقلُ عليك من هذا الكتاب أهمَّ ما حَرَصْنا على نقله إليك، وأَلْزَمنا أنفسَنَا احتمالَه. والتزامُنا ما يُثقِلُ غيرَنا لا يعني أننا خالَفْنا لِنُعْرَف، أو أننا أشدُّ عزيمة، وأنفذُ بصيرة ممَّن سبقونا، وكلُّهم صاحبُ فضل علينا، وعلى غيرنا من القرّاء. وحسبُهم فضلاً أنهم الرادةُ السابقون الذين ذلّلوا دوننا الصعابَ. فكيف نُنازعهم قصبَ السَّبْق، وشرفَ الابتكار؟

لقد نظرنا فيما سبقنا إليه مؤرّخو الأدب ودارسوه - وأبرزُهم أستاذُنا المؤرِّخ العالم د. عمر فروخ، والكاتب الناقد د. شوقي ضيف - فوجدنا أن ما دَرَساه من النثر الأموي هما ولِداتُهما والرعيلُ الأول كان موجزاً غايةَ الإيجاز، يُذيقُ ولا يُشبع، ويشوِّقُ ولا يُقنع. وقد يوهم القارئَ العصريَّ أن النثر العربي في العصر الأموي لم يكن أكثر من خطب ورسائل، وشذرات من مواعظَ وقصص، فتقتحمُه عينُه، أو يُسَخِّفُه ذهنُه، وهو في الحالين ظالمٌ، وظلمُه ناجمٌ عمَّا وُضِع بين يديه من هذا الكنز النفيس المهمل.

ولهذا عَقَدْنا النيةَ منذ شرعنا بإعداد «النثر في عصر النبوة والخلافة الراشدة» على أن نضعَ النثر القديمَ: إسلاميَّه وأمويَّه حيث يجبُ أن يوضعَ من تاريخ الأدب العربي، فننفض عنه غبارَ الإهمال، وننفي تَفَثَ الإغفال، ونوفّيه حقَّه من الدرس المفصَّل، والنقد المعلَّل، وأن نُنْصِفَه من قسيمهِ وخصيمهِ الشعرِ، ومن مُهْمليه ومغفليه المؤرخين والدارسين.

لقد دأبَ النقادُ القدماءُ والدارسون المحدثون على أن يقدِّموا كلَّ موزون على كلِّ منثور إذا اتفقا في الفكرة، كأنَّ جوهرَ الأدب إيقاعهُ لا إبداعُه، ولو أنهم كانوا قد جعلوا شعرَ الأمويين السابقَ المجلِّي، ونثرَهم اللاحقَ المصلّي، لهانَ الخطبُ، واحْتُمِل الحَيْفُ، وازدانَ مضمارُ السباق بحليةِ الاتّساق. ولكنهم دأَبوا على أن يقدِّموا الشعرَ، فيجعلوه الطليعةَ، وعلى أن يؤخّروا النثر، فيجعلوه السَّاقَةَ، وأن يختاروا من المنثور خُطبَهُ ورسائلَهُ، ويخصُّوها بالدرس والنقد، وأن يردُّوا المناظراتِ والوصفَ والمجالسَ إلى آخر الحلبة ليكون منها المؤمَّلُ واللطيمُ والسُّكَيْتُ[1]، أو ليخرجوها من ميدان البيان، فلا تفوز من دراستهم إلا باهتمامٍ يسيرٍ، ونظرٍ حسير.

ولعلَّهم أهملوا ما أهملوا، لأن القسمَ الأعظمَ من النثر الأمويِّ انتثر في كتب التاريخ والتراجم، فشقَّ عليهم جمعُه من مظانِّه، واستخراجُه من مناجمه، وتقسيمُه إلى أبواب، تَلُمُّ منه ما تَشَعَّث، وتُنسِّق ما تداخل، ثم تسلكُه بحسب أفكاره في أغراض تميزُ الأمثالَ من الحكم، والرقائقَ من المواعظ، والمُلاحاةَ من المفاخرة، والمناظرةَ من المحاورة، حتى خُيِّلَ إلى شُداة المتأدِّبين، وهم يقرؤون «تاريخ الطبري» و«البدايةَ والنهاية» و«سيرَ أعلام النبلاء» أن هذه النصوص تاريخٌ لا أدب.

وهَبْهُمْ ركبوا المركبَ الصعب، وسلكوا المسلكَ الوعر، فنقَّروا عن الفرائد، وظفروا بالشرائد، فإنهم لا يجدون أمامهم طريقاً معبَّداً، ولا منهجاً ممهَّداً، يدرسون على ضوئهما ما حصَّلوا وجمعوا، وما أصَّلوا وفرَّعوا، لأن الأغراضَ التي سبق درسُها في كتب السابقين لا تزيد على ربع الأبواب التي يدرسُها هذا الكتاب.

فبين دِفَّتي هذا الكتاب ستة عشرَ باباً، درس أولُها العواملَ التي عملت على ازدهار النثر عامَّةً لا النثر الفني خاصَّةً، وجُعِلَ ثانيها وقفاً على الخطابة،

(١) خيلُ السباق عَشَرة: أوَّلها المُجَلِّي، والثاني المُصَلِّي.. والثامن المؤمَّل، والتاسع اللَّطيم، والعاشر السُّكَيْتُ.

وأُفْرِدت الرسائلُ في الثالث، والتوقيعاتُ في الرابع، والقصصُ والمواعظ في الخامس.

وهذه الموضوعاتُ هي الأغراضُ التقليديةُ التي طاف بها الدارسون السابقون طوافَ السائح العجلان، أو ألَمُّوا بها إلمام المتعرِّف المستطرف، ولم يدرسوها دراسةَ الناقد المُدقِّق الحريص على اكتشاف السِّمات، المَعْنِيِّ برصد التطوُّر الذي أصاب هذه الأغراض، وهي تنتقلُ من عصر إلى عصر.

أمَّا الأبوابُ الأخرى التي دَرَست الأمثالَ والحِكَمَ والشكوى والعتابَ والاعتذار والتهنئةَ والتعزية والمحاورة والمناظرة والمجالسَ والوصف، والأغراضَ غير الأدبية، فقد راودت أفكاراً أبكاراً، أو تصيَّدت أصدافاً مغلقة، ثم أخرجت منها لآلئَ، لم يَغُصْ عليها غائصٌ، ودرستها وَفق منهج لم يرسم خطوطه راسم.

فإن أصابت حظّاً من التوفيق، فالفضلُ لنفاسة المدروس، لا لفراسةِ الدارس. وإن أخطأها التوفيقُ فالتَّبِعَةُ على مَنْ عجزا عن أن يصوِّرا ما تصوَّرا. وعذرُهما أنهما رادا طريقاً لم يُرَدْ، واقتحما شعاباً لم تُوطأْ، فعثرا، وعليك الإقالةُ، لهما منك التنبيه والنصح، ولك عليهما الامتنان والشكر.

ثبَّت الله خُطانا على صراط الحقّ، وجنَّبنا مزالق الباطل، وبصَّرنا بأسرارِ العربية، وجعل ما كَتَبْنا ونكتبُ خالصاً لوجهه الكريم.

والحمد لله ربّ العالمين